الخلود لك أبا نزار

بقلم: قيس عبد الكريم (أبو ليلى)
عضو المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

أبو نزار لن يغادر ذاكرتنا مهما مر الزمن. هو من أولئك الذين قد يستطيع الموت أن يغيب أجسادهم، ولكنه لا يستطيع أن يغيب حضورهم الماثل أبداً في الوعي والوجدان.

أبو نزار كان نموذجاً فريداً للقائد الثوري قل نظيره في هذا الزمان. شخصيته المتميزة تتألق بغناها وعمقها وتوهجها. كان مهندساً وشاعراً في آن، مقاتلاً ومفكراً معاً، زاهداً وطموحاً في نفس الوقت. شخصية تحتضن هذه النقائض كلها كانت محكومة بأن تسمو وتسمو دائماً وأبداً حتى تحطم جدار الجسد وتنطلق متحررة نحو فضاء الخلود. وهكذا كان.

رغم اعتزازه بنفسه وإصراره على أداء دوره القيادي بكامل أبعاده كان أبو نزار مثالاً في التواضع والتفاني ونكران الذات. بالنسبة له لم يكن الموقع القيادي تشريفاً أو سبيلاً للجاه والنفوذ، بل كان بالأحرى تكليفاً كفاحياً وواجباً نضالياً حرص دوماً على أن يفيه حقه من حسن الأداء والبذل والعطاء.

انخرط في العمل النضالي منذ كان فتى يافعاً. وطنيته الفلسطينية المتوقدة سرعان ما قادته إلى فتح حيث لم يترك مجالاً من مجالات العمل الكفاحي إلا وكان رائداً فيه سواء في ميادين العمل القتالي أو الجماهيري أو الإعلامي أو الفكري أو السياسي والدبلوماسي. بهذا احتل موقعه القيادي في

صفوف الحركة بجدارة، وحظى بمحبة واحترام كوادرها ومناضليها.

انتماؤه لحركة فتح كان عميقاً، واعتزازه بهذا الانتماء كان كبيراً لحد التعصب. ولكنه في الوقت نفسه كان منفتحاً على القوى الأخرى، وحريصاً على صون قنوات الحوار حتى في أشد لحظات الخلاف، مؤمناً إيماناً عميقاً بأهمية وضرورة الوحدة الوطنية وعاملاً بكل جهد من أجل تعزيزها، وبخاصة في ميدان النضال ضد الاحتلال.

إيمانه بالحوار كان وراء إطلاقه "منتدى الفكر والحوار الوطني" الذي سرعان ما أصبح خزان فكر زاخراً تتفاعل وتتواصل فيه الاجتهادات والآراء ووجهات النظر من مختلف اتجاهات الفكر والعمل السياسي الفلسطيني، وتخضع فيه كل قضايا واقعنا وثورتنا المعاصرة لنقاش حر وجاد، عميق ومتفتح.

وحرصه على الوحدة الوطنية جعله المبادر في سعي حثيث لإيجاد صيغة تلتقي فيها جميع القوى المناضلة ضد الاحتلال على قاعدة حد أدنى بالرغم من الخلافات الحادة التي مزقت الصف الوطني في ضوء الموقف من اتفاقات أوسلو. صبره ودأبه ورحابة صدره كان عاملاً هاماً من عوامل النجاح في إقامة إطار القوى الوطنية والإسلامية الذي ضم كافة الفصائل الوطنية الفاعلة في منظمة التحرير إلى جانب حماس والجهاد الإسلامي. وما أن اندلعت الانتفاضة الثانية حتى أصبح هذا الإطار القيادة السياسية العليا للانتفاضة ومركز التوجيه الميداني لفعالياتها الجماهيرية. ظل أبو نزار على رأس هذا الإطار منسقاً عاماً معترفاً به، ومسلماً بدوره من

قبل الجميع. ورغم الصعوبات الهائلة التي أعقبت عدوان "السور الواقي"، بقي حريصاً على الحفاظ على تماسك هذا الإطار ودوره القيادي فيه حتى داهمه المرض وأقعده.
كم نفتقد اليوم هذا الدور الوحدوي للقائد الراحل أبي نزار ونحن نكابد محنة الانقسام الكارثي التي شهدنا فيها فصول الاقتتال الدامي بين الأخوة والصراع التافه على السلطة بديلاً عن الوحدة في مجابهة الاحتلال. كم نحن نفتقد حكمته وتشبثه المبدئي المزيج بالمرونة في الانفتاح على أفكار الآخرين. وكم نتذكر بحرقة حضوره الطاغي، في ميادين الحوار كما في ميادين الفعل النضالي. لقد كرس حياته لفلسطين. ووهب حياته لفلسطين.